البابُ الثانى

الفصل الأول : أثر القيان فى الشاعر الجاهلى :
أثر عام فى حياته ، أثر خاص فى عاطفته .

الفصل الثانى : أثر القيان فى الشعر الجاهلى :
إنماء الشعر وإغزاره ، الموسيقى الخارجية من بحر وقافية ، الموسيقى الداخلية من عذوبة اللفظة وجرسها الموسيقى ، رواية الشعر وحفظه .

الفصل الثالث : الأعشى شاعر القيان فى العصر الجاهلى :
بيئته ، العوامل المؤثرة فى حياته ، منزلته الفنيّة ، أثر القيان فى حياته وشعره .

الفصل الأول

أثر القيان فى الشاعر الجاهلى

إنّ هذا الذى قدّمناه فى الفصول السابقة ليجلو لنا ، فى وضوح ناصع ، جانبًا وضيئًا مزهراً من حياة العرب فى الجاهليّة . وقد قفَوْنا آثار هؤلاء القيان بين أولئك العرب ، فوجدناهنّ مبثوثات فى الجزيرة العربيّة : تزهو بهنّ مدنُها وحواضرها ، وتلهو بغنائهنّ بواديها ومضاربها ؛ وكما كنّ زينة القصور الناعمة المترفة ، كنّ كذلك بهجة الخيام الجافية ، التى لا يكاد تستقرّ بها أوتادها حتى تُقْتَلع لارتياد كلإ ، أو انتجاع غيث . . .

وكما كان القيان يلهّين السّيد الشريف ، أو التاجر المترف ، أو الأعرابى البادى ، فى مجالسهم الخاصة مع خلصائهم وندمائهم ، كنّ كذلك تُضَوِّى بهنّ تلك الحانات والدور العامة للبغاء ، حيث كان طلاب اللهو يجدون المتعة واللذّة مع أولئك القيان : مغرّدات عازفات ، أو ساقيات مُرْويات ، أو راقصات مائسات ، يعرضن ألوانًا من عذوبة اللحن ، وفتنة الجسد . وقد فصّلتُ القول فى كلّ ذلك تفصيلاً ما أحسبنى فى حاجة إلى إعادة القول فيه .

وإنّما الذى يعنينى الآن أن أخْلُص من كلّ ذلك إلى أن هؤلاء القيان — وقد كنّ من الكثرة والانتشار ، ومن التحضّر والتّرف ، ومن الرقىّ الفنىّ فى الغناء ، بالمنزلة التى أبنّا — كان لزامًا أن يتجاوبن مع البيئة من حولهنّ ، وأن يكون لهنّ أثرهنّ ، الذى لا شكّ فيه ، فى حياة عرب الجاهليّة عامة ، والشعراء منهم خاصّة .

والصلة بين الشعر والغناء صلة قويّة تَهْوِى فى أعماق القدم حتى تصل إلى

نشأة الشعر ومبدئه ، وتمتدّ حتى تشمل الشعوب كلّها فى استقراء جامع . ولا يعنينا فى هذا البحث من هذا القول تعميمه وإطلاقه ، فذلك شىء يخرج بنا عن الحدود التى رسمناها لهذا البحث . وكذلك لا يعنينا أن نعرض لهذا الشاعر العربى فى غنائه لشعره وإنشاده إيّاه مترنّمًا ملحّنًا ، وإنّما الذى يرمى إليه هذا الفصل ، والفصل الذى يليه ، هو أثر هؤلاء القيان وحدهنّ فى الشاعر الجاهلى وشعره [١] .

* * *

أمّا أثر القيان فى الشاعر الجاهلى فسنرى فى سياق هذا الفصل أنّه أثر واضح مجلوّ ، وأنّه إنّما ينسرب فى شِعْبَين كبيرين :

أولهما — أثر عام فى حياة الشاعر وتوجيهها ، فى بعض فتراتها ، وجهة ناعمة لاهية ، قد تغلو فتصبح ماجنة داعرة .

وثانيهما — أثر خاص فى عاطفة الشاعر ، حين تصبح القينة وحيًا للشاعر تثير فيه دواعى القول ، فينظم فيها متغزلاً متشوّقًا ، أو ناسبًا واصفًا .

وكلا الأثرين راجع إلى أن صلة الشاعر بالقيان كانت عن ثلاث سبل : الأولى — فى الحانات والدور العامة ؛ والثانية — فى المجالس التى كان يفد الشاعر على أصحابها من السادة والأشراف ، فينشدهم شعره ، ويستمع إلى قيانهم يغنّين بذلك الشعر ، أو بشعر غيره ؛ والثالثة — مجالسه الخاصة حيث كانت قينته هى التى تلهّيه وتغنّيه .

---

(١) راجع لبيان علاقة عروض الشعر وأوزانه وقوافيه بموسيقى الغناء وألحانه : الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى تاريخ آداب العرب ٣ : ١٠ — ١٣ ؛ والأستاذ أحمد الشايب فى أصول النقد الأدبى — الفصل الثالث من الباب السادس — الطبعة الثانية ص : ٣١٥ — ٣٢٤ .

وراجع لبيان مظاهر الغناء والموسيقى فى الشعر الجاهلى خاصة : الأستاذ الدكتور شوقى ضيف فى الفن ومذاهبه فى الشعر العربى — الفصل الثانى من القسم الأول — الطبعة الثانية ص : ٢٦ — ٣٦ .

الأثر العام :

كانت لذاذات الشاعر العربى الجاهلى ، فى لهوه ، تقوم على ثلاث دعامات : المرأة ، والخمر ، والغناء . ونحن نجد تفصيل هذه اللذاذات تفصيلاً ممتعًا وافيًا ، يُطِلّ علينا فى جلاء من ثنايا الشعر الجاهلى ؛ وقلّما يخلو شاعر جاهلى من تصويرها فى قصيدة أو قصائد من شعره . . . وهو أحيانًا يذكرها متفرّقة فى مواطن مختلفة ، فيفصّل القول فى كلّ منها مفردةً ، ويجمعها أحيانًا أخرى فى صعيد واحد جمعًا مجملاً لا يخلو من بعض تفصيل .

أمّا المرأة فقد كانت صلة الشاعر بها صلة عميقة واسعة ، ذات نواح متشعّبة ، ولن نعرض فى حديثنا هذا للمرأة إلاّ إذا كانت مغنّية ، أو من نساء الدور العامة ، لما أبنّاه من صلة محكمة بين الغناء ودور الشرب والبغاء . وقد ذكر سُلْمِيّ بنُ ربيعة هذه اللذاذات الثلاث وأضاف إليها لذّتين أخريين ، هما : لذّة السفر على الناقة ، ولذّة الغنى ووفرة المال ، قال[1] :

إنَّ شِــوَاءً وَنَشْوَةً وَخَبَبَ البَازِلِ الأَمُونِ
يُجْشِمُهَا المَرْءُ فى الهَوَى مَسَافَةَ الغَائِطِ البَطِينِ
والبِيضَ يَرْفُلْنَ كَالدُّمَى فى الرَّيْطِ والمُذْهَبِ المَصُونِ
والكُثْرَ والخَفْضَ آمِناً وَشِرَعَ المِزْهَرِ الحَنُونِ
مِنْ لَذَّةِ العَيْشِ ، وَالفَتَى للدّهْرِ ، وَالدّهْرُ ذُو فُنُونِ
وَالعُسْرُ كَاليُسْرِ ، وَالغِنَى كَالعُدْمِ ، وَالحَيُّ للمَنُونِ

وإلى هذه اللذاذات الثلاث : المرأة ، والخمر ، وغناء القيان ، يشير بُرْج ابن مُسْهِر الطائى ، وقد أسهب فى وصف الخمر[2] :

---

(١) حماسة أبى تمام ٢ : ٧ .
(٢) حماسة أبى تمام ٢ : ٨١ – ٨٣ .

وَنَدْمَانٍ يَزِيدُ الكَأْسَ طِيباً ... سَقَيْتُ ، إذا تَغَوَّرَتِ النُّجُومُ
رَفَعْتُ بِرَأْسِهِ وَكَشَفْتُ عَنْهُ ... بِمُعْرَقَةٍ ، مَلامَةَ مَنْ يَلُومُ
فَلَما أَنْ تَنَشَّى قَامَ خِرْقٌ ... مِنَ الفِتْيَانِ مُخْتَلِقٌ هَضُومُ
إلى وَجْنَاءَ نَاوِيَةٍ فَكَاسَتْ ... وَهَى العُرْقُوبُ مِنْهَا وَالصَّمِيمُ

. . . . . .

فَأَشْبَعَ شَرْبَهُ وَسَعَى عَلَيهِمْ ... بِإِبْرِيقَينِ كَأْسُهُمَا رَذُومُ
تَرَاهَا فى الإِنَاءِ لَهَا حُمَيّا ... كُمَيتاً مِثْلَ ما فَقَعَ الأَدِيمُ
تُرَنِّحُ شَرْبَهَا حتَّى تَرَاهمْ ... كَأَنَّ القَوْمَ تَنْزِفُهُمْ كُلُومُ

إلى أن يقول :

فَبِتْنَا بَينَ ذَاكَ وَبَينَ مِسْكٍ ... فَيَا عَجَبًا لِعَيْشٍ لو يَدُومُ
وَفِينَا مُسْمِعَاتٌ عِنْدَ شَرْبٍ ... وَغِزْلانٌ يُعَدّ لَهَا الحَمِيمُ

وقد جمع هذه اللذائذ أيضًا عبد الله بن عجلان النَّهْدى فى قصيدته[1] :

وَحُقَّةِ مِسْكٍ من نِسَاءٍ لَبِستُها ... شَبَابى وَكأْسٍ باكَرَتْنى شَمُولُها
جَدِيدَةِ سِرْبَالِ الشَّبابِ كأَنَّها ... سَقِيَّةُ بَرْدِىٍّ نَمَتها غُيُولُها

إلى أن يقول :

وَأَبْيَضَ مَنقُوفٍ وَزِقٍّ وَقَيْنَةٍ ... وَصَهْبَاءَ فى بَيضَاءَ بادٍ حُجولُها
إذا صُبَّ فى الرَّاووق منها تضوعت ... كُمَيتٌ يَلَذّ الشّارِبينَ قَليلُها

---

(١) الحماسة ٢ : ٧٤ – ٧٦ .

وممّن أشار إلى لذّتى الغناء والشراب عَدِىّ بن زيد العِبَادىّ ، فقد جعل همّه كلّه محصوراً فى هاتين اللذتين والاستمتاع بهما ، قال[١] :

أَيُّهَا القَلْبُ تَعَلَّلْ بِدَدَنْ إِنَّ هَمّى فى سَمَاعٍ وَأَذَنْ
وَشَرَاب خُسْرَوَانىٍّ إذا ذَاقَهُ الشَّيْخُ تَغَنَّى وَارْجَحَنّ

وربّما كان خير سبيل للإحاطة بهذا الأثر العام أن نستمرّ فى عرض الشعراء الذين نتناولهم شاعراً شاعراً . فأمّا امرؤ القيس فهو يعرض لهذه الطبقة العابثة من النساء بقوله[٢] :

أُغَادِى الصَّبُوحَ عِندَ هِرٍّ وَفَرْتَنى وَلِيدًا ، وَهَلْ أَفْنَى شَبَابِىَ غيرُ هِرّْ ؟
إذا ذُقْتَ فَاهَا قُلتَ : طَعمُ مُدامَةٍ مُعَتَّقَةٍ مِمّا تَجِىءُ به التُّجُرْ
إِذَا قَامَتَا تَضَوّعَ المِسْكُ منْهُمَا نَسِيمَ الصَّبَا جاءَتْ بِرِيحٍ من القُطُرْ
كَأَنَّ التِّجَارَ أَصْعَدُوا بِسَبِيئَةٍ مِنَ الخُصِّ حتى أَنْزَلُوهَا على يُسُرْ

وأغلب ظنى أن هاتين المرأتين إنّما كانتا تسقيان الخمر فى إحدى الحانات ، وأن امرأ القيس ، لذلك ، كان يغادى الصَّبوح عندهما منذ صباه ، أو لعلّهما كانتا من فتيات تلك الدور العامة التى كان يرتادُها طلاب اللهو لمتعة الجسد ، ومعرفة امرئ القيس بهذه الطبقة العابثة من النساء تبدو فى قوله[٣] :

وَآثَرَ بِالمَلْحَاةِ آلَ مُجَاشِعٍ رِقَابَ إِمَاءٍ يَقْتَنِينَ المَفَارِمَا

وهو يجمع فى بيتين آخرين ثلاث لذاذات ، اثنتين من لذاذات اللهو ،

---

(١) أبو العلاء المعرى ، رسالة الغفران — ط . الكيلانى جـ ١ ص ٤١ وكذلك الأدفوى ، الإمتاع بأحكام السماع ورقة ٨ ؛ وينسب البيت الثانى للأعشى كذلك — قصيدة : ٧٨ ، بيت : ١٤ .
(٢) ديوانه — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ص : ١١٠ — ١١١ .
(٣) ديوانه : ١٣٠ وانظر شرحه هناك .

هما : المرأة ، والخمر ، والثالثة : من لذاذات الجدّ ، وهى الكَرّ فى الحرب ، قال[١] :

كأنّى لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلَذّةٍ ... وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كاعِباً ذاتَ خَلْخالِ
وَلَمْ أَسْبَإِ الزِّقّ الرَّوِىّ وَلَمْ أَقُلْ ... لخَيْلِىَ : كُرّى كَرّةً بَعْدَ إجْفَالِ

وأمّا غناء القيان فقد كان لذّةً تفرّج عنه كربه ، وتكشف غمّه ، قال[٢] :

وَإِنْ أُمسِ مَكرُوباً فيَا رُبّ قَينةٍ ... مُنَعَّمَةٍ أَعْمَلْتُهَا بِكِرَانِ
لهَا مِزْهَرٌ يَعلُو الخَمِيس بصَوْتِه ... أَجَشُّ إذا مَا حَرّكَتهُ اليَدَانِ

ونحن نرى نتيجة اجتماع هذه اللذاذات كلّها فى هذا الجوّ اللاهى الماجن ، الذى يصوّره لنا امرؤ القيس تصويراً يكاد ينطق وحده بما لعذوبة المرأة وموسيقى الغناء والألحان من أثر فى جمال هذه الأبيات[٣] :

سَمَوْتُ إلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا ... سُمُوَّ حَبَابِ المَاءِ حَالاً علىحَالِ
فَقالتْ : سَبَاكَ اللهُ ، إنَّكَ فَاضحِى ... أَلَسْتَ تَرَى السّمّارَ وَالنَّاس أحوالى
فَقُلْتُ : يَمِينَ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا ... وَلَوْ قَطَّعُوا رَأْسى لَدَيكِ وَأَوْصالى
حَلَفْتُ لهَا بِاللهِ حِلْفَةَ فَاجِرٍ : ... لنَاموا فَما إنْ من حديثٍ وَلا صَالِ
فَلَما تَنازَعْنا الحَديثَ وَأَسْمَحَتْ ... هَصَرْتُ بغُصْنٍ ذى شَمارِيخَ ميالِ
وَصِرْنَا إلى الحُسْنَى وَرَقَّ كَلامُنَا ... وَرُضْتُ فَذَلَّتْ صَعْبَةً أىّ إذْلالِ

ولا ريب فى أن امرأ القيس قد أكثر من تصويره لبيئة المرأة تصويراً يتناول

---

(١) ديوانه : ٣٥ .
(٢) ديوانه : ٨٦ .
(٣) ديوانه : ٣١ — ٣٢ .

الجانب اللاهى من لذة الشاب العربى المترف ، ولا شكّ أن فى شعره كثيراً من الأبيات تتّسق مع هذا النّسق الذى قدّمنا ، فى : يُسْر اللفظ ، وقُرْب المتناول ، وعذوبة النغم ، ثمّ فى هذه اللذاذة الغَويّة . ولكنّنا نقتصر على ما قدّمنا ، وقد عرضنا فيه لتصوير امرئ القيس لفتاة الحانة ، ثمّ للقينة المغنيّة ، وأشرنا إلى استمتاعه باللذاذات الثلاث : المرأة والخمر والغناء . ونحن نعلم أن امرأ القيس ، فيما رووا لنا ، كان لاهيًا عابثًا قبل مقتل أبيه ، وكان يطوف فى أحياء العرب ومع أخلاطٍ من شُذّاذهم ، فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد ، أقام فذبح لمن معه فى كلّ يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيّد ، ثمّ عاد فأكل وأكلوا معه ، وشربوا الخمر ، وسقاهم ، وغنّته قيانه[١] .

ولم يتفرّد امرؤ القيس وحده دون سائر شعراء الجاهليّة باقتناص اللّهو واغتراف اللذّة ، بل شاركوه جميعًا فى هذا الجانب ، وتفوّق عليه بعضهم فى وفرة الأبيات الّتى تصوّر لنا لذة الغناء وملحقاته ، كما سيتّضح لنا .

أمّا علقمة الفحل فهو شاعر مُقِلّ ، ولم يُحْفَظ لنا من شعره غير ثلاث قصائد طوال ، ثمّ ثمانى مقطوعات صغيرة مجموع أبياتها ستة وثلاثون بيتًا[٢] . ومع ذلك فإنّنا نعلم أن علقمة هذا كان ممّن يغنّى شعره ، وأنّه ، حين وفد على الغساسنة ، لم يُسمَع له قبل أن يلحّن شعره ويغنّيه[٣] . فإذا نقّبنا فى ديوانه وجدنا فيه — على ضآلته — ما ينمّ عن هذه الحياة اللاذّة اللاهية ، وأنّه فى ذلك نَهَزَ مع أقرانه بدِ لائهم ، ولم يقصّر عن شأوهم ، فهو يصف لنا لذّة الشراب ولذّة الغناء فى أبيات سبعة تفى بما نرمى إليه فى هذا البحث ، من تصوير هذا الأثر العام الذى جعل حياته فى لهوها تقوم على المرأة والخمر والغناء . وهو فى أبياته هذه يصف لنا جوّ الحانة بما فيها من خمّارين وسُقَاة وخمر ومزهر

---

(١) الأغانى — ساسى ٨ : ٦٥ .

(٢) ديوان علقمة — ط . ليبزج سنة ١٨٦٧ .

(٣) فارمر — تاريخ الموسيقى العربية ص ١٨ نقلا عن الفارابى :

Al Farabi, Leyden Ms., Or. 651, fol. 7. Kosegarten, Lib. Caut., 200.

وغناء ، قال :

قَد أَشْهَدُ الشَّرْبَ فيهِمْ مِزْهرٌ رَنِمٌ ... وَالقَوْمُ تَصرَعُهُمْ صَهباءُ خُرْطوم

كأَنَّ عَزِيزٍ من الأَعنَاب عَتَّقَهَا ... لبَعْضِ أَرْبَابِهَا حَانِيةٌ حُوم

تَشفِى الصّداعَ وَلا يُوْذيكَ صَالِبُهَا ... وَلا يُخالطُهَا فى الرَأْسِ تَدْوِيمُ

عَانِيّةٌ قَرْقَفٌ لَمْ تُطَّلَعْ سَنَةً ... يُجِنُّهَا مُدْمَجٌ بِالطّينِ مَخْتُومُ

ظَلَّتْ تَرَقْرَقُ فى النَّاجُودِ يَصْفِقها ... وَلِيدُ أَعْجَمَ بِالكَتّانِ مَفْدُومُ

كَأَنَّ إِبْرِيقَهُمْ ظَبْيٌ عَلى شَرَفٍ ... مُفَدَّمٌ بِسَبَا الكَتّانِ مَلْثُومُ

أَبْيَضُ أَبْرَزَهُ للضِّحّ رَاقِبُهُ ... مُقَلَّدٌ قُضُبَ الرّيحَانِ مَفْغُومُ

وأمّا طَرَفة فإنّه يشترك مع امرئ القيس فى هذه الحياة اللاهية العابثة ، وفى أنّهما كليهما أنموذج للشاب العربى الجاهلى الشريف . وهذه أبيات لطرفة يتنزّى فيها الشباب الفوّار العابث ، يصف لنا فيها وصفًا ممتعًا إكبابه على الشراب وارتياد الحانات ، ثم يتناول إحدى قيان هذه الحانات بوصف مفصل ، يحيط بجسمها وثيابها وصوتها وألحانها ، ثمّ ينتقل بعد ذلك إلى بيان استهانته بهذه الحياة ، فهو من أجل ذلك مقبل إقبال النّهِم على هذه اللذاذات الثلاث التى يذكرها فى آخر شعره[1] :

وَإِنْ تَبْغِنى فى حَلْقَةِ القَوْمِ تَلقَنى ... وَإِنْ تَقْتَنِصْنى فى الحَوَانيت تَصْطَدِ

مَتى تَأْتِنى أَصْبَحْكَ كأْساً رَوِيةً ... وَإِن كنتَ عنها ذا غنًى فاغنَ وَازْدَدِ

نَدَامَاىَ بِيضٌ كَالنّجُومِ وَقَينَةٌ ... تَرُوحُ عَلَيْنَا بَينَ بُرْدٍ وَمُجْسَدِ

رَحِيبٌ قِطابُ الجَيبِ مِنها رَفِيقَةٌ ... بِجَسّ النَّدَامَى بَضَّةُ المُتَجرَّد

---

(١) ديوان طرفة – ط . شالون ١٩٠٠ ، ص : ٢٤ – ٢٩ .

إذا نَحنُ قُلنا :أَسمعينا ،انْبَرَتْ لنا عَلى رِسْلِهَا مَطْرُوفَةً لمْ تَشَدَّدِ
إذا رَجَّعَتْ فى صَوْتِهَا خِلْتَ صَوْتَها تَجَاوُب أَظْآرٍ عَلى رُبَعٍ رَدِى
وَمَا زَالَ تَشْرَابى الخُمُورَ وَلَذّتى وَبَيْعِى وَإِنْفَاقى طَرِيفى وَمُتْلَدى
إلى أَنْ تَحَامَتْنى العَشيرَةُ كُلُّهَا وَأُفْرِدْتُ إِفْرَادَ البَعِيرِ المُعَبَّدِ
أَلا أَيهَذا الزَّاجرِى أَحْضُر الوَغَى وَأَنْ أَشهَدَ اللذَّاتِ هل أَنتَ مخلدِى؟
فَإِنْ كُنْتَ لا تَسْطيعُ دَفْعَ منيّتى فَذَرْنى أُبَادِرْهَا بِما مَلكَتْ يَدى
فَلَوْلا ثَلاثٌ هُنَّ من عِيشَة الفَتى وَجَدِّكَ لمْ أَحْفِلْ مَتى قامَ عُوّدى
فَمِنهُنَّ سَبْقى العاذِلاتِ بِشَرْبَة كُمَيْتٍ مَتى ما تُعْلَ بالمَاءِ تُزْبِدِ
وَكَرِّى إذا نَادَى المُضَافُ مُحَنَّباً كَسِيدِ الغَضَا نَبّهْتَهُ المُتَوَرِّدِ
وَتَقصِيرُيَوْمِ الدَّجْنِ وَالدجنمُعْجِبٌ ببَهكَنةٍ تحتَ الطِّرَافِ المُعمَّدِ

رأمَّا زُهير بن أبى سُلْمَى فقد طبع شعره بطابع الجدّ ، وألبسه مُسُوح الوقار ، ولكنا مع ذلك لم نعدم فيه أبياتًا انطلق فيها من عقال هذا القيد ، ووصف لنا فيها مجلس شراب — ربَّما كان فى إحدى الحانات — وجلا لنا أثر الشراب والغناء معًا ، قال[1] :

وَقَدْ أَغْدُو على شَرْبٍ كرامٍ نَشَاوَى وَاجِدِينَ لِمَا نَشَاءُ
لَهُمْ رَاحٌ وَرَاوُوقٌ وَمِسْكٌ تُعَلّ بِه جُلُودُهُمُ وَمَاءُ
أُمشّى بَينَ قَتْلَى قَدْ أُصِيبَتْ نُفُوسُهُمُ وَلَمْ تَقْطُرْ دِماءُ
يَجُرُّونَ البُرُودَ وَقَدْ تَمَشَّتْ حُمَيّا الكأْسِ فِيهِمْ وَالغِنَاءُ

(١) ديوان زهير — ط . دار الكتب — ص : ٧٢ — ٧٣ .

فإذا عرضنا — بعد ذلك — شعر لَبيد وجدناه يصف لنا لذاذات الشراب والغناء فى مواطن عدّة من شعره ، فهو يقول فى وصف الحانة[١] :

وَفِتْيَانِ صِدْقٍ قَدْ غَدَوْتُ عليهمُ ... بِلا دَخَنٍ وَلا رَجِيعٍ مُجَنَّبِ
بِمُجْتَزَفٍ جَوْنٍ كَأَنَّ خِفَاءَهُ ... قَرَا حَبَشِيٍّ فى السَّرَوْمَطِ مُحقَبِ
إذا أَرْسَلَتْ كَفُّ الوَلِيدِ كِعَامَهُ ... يَمُجُّ سُلافاً مِنْ رَحِيقٍ مُعَطَّبِ
فَمَهْمَا يَغِضْ مِنْهُ فَإِنَّ ضَمَانَهُ ... عَلى طَيِّبِ الأَرْدَانِ غَيْرُ مُسَبَّبِ
جَمِيل الأُسَا فيما أَتَى الدّهرُ دونَهُ ... كَرِيمِ الثَّنَا حُلوِ الشَّمائل مُعجِبِ

فإذا ما عرض لذكر القيان جعلهنّ ممَّا يُتمدّح به ، فهو ، فى رثائه لأخيه أَرْبَد ، يفخر بأن أخاه كان يَقْرِى ضيوفه ونداماه خمراً وغناء قيانٍ ، قال[٢] :

وَفِتْيَانٍ يَرَوْنَ المَجْدَ غُنْماً ... صَبَزْتَ لِحقّهِمْ لَيلَ التِّمَامِ
وَإِنْ بَكَرُوا غَدَوْتَ بِمُسمِعاتٍ ... وَأَدْكَنَ عَاتِقٍ جَلِدِ العِصَامِ
لَهُ زَبَدٌ عَلى النَّاجُودِ وَرْدٌ ... بِمَاءِ المُزْنِ مِنْ رَيْقِ الغَمَامِ

وهو فى قصيدة أخرى يطلب إلى القيان والندامى أن يبكوا على النّعمان ، فيقول[٣] :

لِيَبْكِ على النّعمانِ شَرْبٌ وقينَةٌ ... ومُختَبِطاتٌ كَالسَّعالَى أَرامِلُ
لَهُ المُلْكُ فى ضَاحى مَعَدٍّ وَأَسْلَمَتْ ... إِلَيه العِبادُ كُلُّهَا مَا يُحَاوِلُ
إذا مَسّ أَسْآرَ الصّقُورِ صَفَتْ لَهُ ... مُشَعْشَعَةٌ مما يُعَتِّقُ بَابِلُ
عَتِيقُ سُلافَاتٍ سَبَتْهَا سَفِينَةٌ ... تَكُرّ عَلَيْهَا بِالمِزَاجِ النَّيَاطِلُ

(١) ديوان لبيد ، رواية الطوسى — الكتاب الثانى سنة ١٨٨٠ ، ص : ٣٣ — ٣٥ .
(٢) ديوانه : ١٣١ — ١٣٢ .
(٣) ديوانه — ط . بريل سنة ١٨٩١ — الكتاب الأول ، ص : ٢٩ — ٣١ .

وفى القصيدة نفسها يمدحه بأنه كان ذا قيان يغنّين الشُّروب ويلهّينهم ، ويعزفن بالعيدان ، قال :

وَبِيضٌ تربَّتْهَا الهَوَادِجُ حِقْبَةً سَرَائرُهَا وَالمُسْمِعَاتُ الرَّوَافِلُ
تَرُوحُ إِذَا رَاحَ الشُّرُوبُ كَأَنَّهَا ظِبَاءُ شَقِيقٍ لَيْسَ فيهِنَّ عاطلُ
يُجاوِبنَ بُحًّا قد أُعِيدَتْ وَأَسمَحتْ إذا احتثَّ بالشِّرْعِ الدِّقاقُ الأَنَامِلُ

ولبيد هو الذى يصف لنا ، فى معلّقته ، الحانة وخمرها وقينتها وآلة غنائها ، إذ يقول :

بَلْ أَنْتِ لا تَدْرِينَ كَمْ مِنْ لَيلةٍ طَلْقٍ لَذيذٍ لَهْوُهَا وَنِدَامُهَا
قَد بِتُّ سَامِرَهَا ، وَغَايَةِ تَاجِرٍ وَافَيْتُ إِذْ رُفِعَتْ وَعَزَّ مُدَامُهَا
أُغْلِي السِّبَاءَ بِكُلِّ أَدْكَنَ عَاتِقٍ أَوْ جَوْنَةٍ قُدِحَتْ وَفُضَّ خِتامُهَا
بِصَبُوحِ صَافيَةٍ وَجَذْبِ كَرِينَةٍ بمُوتَّرٍ تَأْتَالُهُ إِبْهَامُهَا

وأمَّا حسَّان بن ثابت فقد بلغ من أثر هذه الحياة اللاهية فى نفسه أنَّه كان إذا ما سمع الغناء ، بعد إسلامه ، استعبر وذكر أيَّام شبابه ولهوه . وقد مرّ بنا وصفه لمجالس الشراب والغناء عند الغساسنة . فإذا رجعنا إلى ديوانه وجدناه يصف لنا هذا اللهو القائم على الخمر وغناء القيان فى عدّة قصائد ، فهو كثيراً ما يذكر الحانة ويصف لنا خمرها وساقيها ومجالسها ، كقوله[1] :

عَتَّقَهَا الحَانُوتُ دَهْرًا فَقَد مَرّ عَلَيهَا فَرْطُ عامٍ فَعَامْ
نَشْرَبُهَا صِرْفاً وَمَمْزُوجَةً ثم نُغَنِّى فى بُيوت الرِّخَامْ
تَدِبُّ فى الجِسْمِ دَبِيباً كَمَا دَبَّ دَبَا وَسْطَ رَقَاقٍ هَيَامْ

(١) ديوان حسان – ط . ليدن ، ص : ٢٤ – ٢٥ .

كَأْساً إذا مَا الشَّيخُ وَالَى بها ... خَمْساً تَرَدّى بِرِداءِ الغُلامْ
مِنْ خَمْرِ بَيْسَانَ تَخَيّرْتُها ... دِرْيَاقَةً تُورِثُ فَتْرَ العِظَامْ
يَسْعَى بها أَحْمَرُ ذو بُرْنُسٍ ... مُخْتَلَقُ الذِّفْرَى شديدُ الحزَامُ

وكقوله[١] :

ولَقَدْ شَرِبْتُ الخَمرَ فى حَانُوتها ... صَهباءَ صَافيَةً كَطَعْمِ الفُلفُلِ
يَسعَى عَلىّ بِكأْسِهَا مُتَنَطِّفٌ ... فَيُعِلّنى منْها وَلَوْ لَمْ أَنْهَلِ

وهو فى القصيدة التالية يذكر لنا اجتماع الغناء والشراب فى الحانة ، حيث يقضى اللذاذات من لهو وسماع ، قال[٢] :

وَقَد غَدَوْتُ إلى الحانُوت يَصْبَحُنى ... من عاتقٍ مثلِ عَينِ الديك شعشاعِ
تَغْدُو عَلَىّ وَنَدْمَانى لِمِرْفَقِهِ ... نَقْضِى اللّذاذاتِ منْ لَهوٍ وَإِسَماعِ
إذا نَشَاءُ دَعَوْنَاهُ فَصَبّ لَنَا ... مِن فَرْغِ مُنتَفِجِ الحَيزُومِ رَكّاعِ

وأمّا فى القصيدة الآتية فإنه يذكر لنا مجلس شراب عند ممدوحه كانت تغنيه فيه قيانه ، وكنّ مع الغناء يعزفن ويسقين الخمر[٣] :

رُبّ لَهْوٍ شَهِدْتُهُ أُمَّ عَمْرو ... بَينَ بِيضٍ نَوَاعِمٍ فى الرِّيَاطِ
مَعْ نَدَامَى بيضِ الوُجُوهِ كِرَامٍ ... نُبِّهُوا بَعْدَ خَفْقَةِ الأَشْرَاطِ
لكُمَيْتٍ كَأَنّها دَمُ جَوْفٍ ... عُتِّقَتْ منْ سُلافَةِ الأَنْبَاطِ
فَاحتَوَاهَا فَتًى يُهِينُ لهَا المَا ... لَ وَنَادَمتُ صَالحَ بنَ عِلاطِ[٤]

---

(١) المصدر السابق : ١٧ .
(٢) المصدر السابق : ٦٦ .
(٣) المصدر السابق : ٢١ .
(٤) انظر التعريف بصالح بن علاط فى ديوان حسان : 39-40 .

ظَلّ حَوْلى قِيَانُهُ عَازِفَاتٍ مِثْلَ أُدْمٍ كَوَانِسٍ وَعَوَاطِ
طُفنَ بالكأْسِ بَينَ شَرْبٍ كِرَامٍ مَهّدُوا حُرَّ صَالِحِ الأَنْمَاطِ

وهذا أبو مِحْجَن الثَّقَفى يذكر لنا لذّة الشراب ولذّة سماع القينة ذات الدل والغنج ، فى قوله[1] :

إنْ كانتِ الخمرَةُ قد عزَّتْ وَقدمُنعتْ وَحالَ من دُونِها الإِسْلامُ وَالحَرَجُ
فَقَدْ أُبَاكِرُهَا رَيّا وَأَشْرَبُهَا صِرْفاً وَأَطْرَبُ أَحْيَاناً فأَمتَزِجُ
وَقَدْ تَقُومُ عَلى رَأْسِى مُغَنِّيَةٌ فيها – إذا رَفِعتْ من صَوْتِها – غُنُجُ

وقد ذكر عَبْدَة بن الطَّبيب الحانة ، ووصف وصفًا مسهبًا أثاثها المزيَّن ، ثمّ عرض لذكر قينة الحانة التى كانت تغنّيه وصحبتَه فيها ، قال[2] :

وَقَد غَدَوْتُ وقَرْنُ الشَّمسِ مُنفتقٌ وَذُونَهُ منْ سَوَادِ اللَّيْلِ تَجْلِيلُ
إلى التِّجَارِ ، فَأَعْدَانى بِلَذَّتِهِ رِخوُ الإِزَارِ كصَدرِ السّيفِ مَشمولُ
حَتَّى اتَّكَأْنَا عَلى فُرْشٍ يُزَيِّنُهَا منْ جَيِّدِ الرّقمِ أَزْوَاجٌ تَهَاوِيلُ
فيها الدّجَاجُ وَفيهَا الأُسْدُ مُخدِرَةً مِن كلّ شَىْءٍ يُرَى فيهَا تَماثِيلُ
فى كَعْبَةٍ شَادَهَا بَانٍ وَزَيّنَهَا فيهَا ذُبَالٌ يُضِىءُ اللَّيْلَ مَفتولُ
لَنا أَصِيصٌ كجِذمِ الحَوْضِ هَدّمَه وَطْءُ العِرَاكِ لَديهِ الزّقُّ مَغلُولُ
وَالكُوبُ أَزْهَرُ مَعْصُوبٌ بِقُلَّتِهِ فَوْقَ السِّيَاعِ من الرّيْحانِ إكلِيلُ
يَسعَى بهَا مِنصَفٌ عَجلانُ مُنْتَطِقٌ فَوْقَ الخِوَانِ وَفى الصاعِ التَّوَابِيلُ

---

(١) ديوان شعر أبى محجن الثقفى – صنعة الشيخ أبى هلال العسكرى – مخطوط بدار الكتب – رقم ٦٠٧ أدب .

(٢) المفضليات – ليل : ٢٦ .

ثُم اصْطَبَحْتُ كُمَيتاً قَرْقَفاً أُنُفٍ من طَيِّبِ الراحِ وَاللذَّاتُ تَعْلِيلُ
صِرْفاً مِزَاجاً وَأَحْيَاناً يُعَلِّلُنَا شِعْرٌ كمُذهَبَةِ السَّمّانِ مَحمُولُ
تُذْرِى حَوَاشِيَهُ جَيْدَاءُ آنِسَةٌ فى صَوْتِهَا لِسَماعِ الشَّرْبِ تَرْتِيلُ
تَغْدُو عَلَيْنَا تُلَهِّينَا وَنُصْفِدُهَا تُلْقَى البُرُودُ عَلَيهَا وَالسَّرَابِيلُ

* * *

وخلاصة القول فيما تقدّم أن غناء القيان كان إحدى لذّات ثلاث أثّرت فى الحياة الجاهليّة عامّة ، وفى حياة الشعراء خاصة ، وأن هؤلاء القيان كنّ من الوفرة والشيوع فى الحانات ودور اللهو العامة ، وفى مجالس الملوك والسادة والأشراف ، وفى مجالس الشعراء الخاصة ، بمنزلة جعلتهنّ مع الخمر وطبقةٍ خاصة من النساء اللاهيات — عواملَ قويّة الأثر فى إشاعة هذا الجوّ العابث السّادر ، الذى صبغ حياة الشعراء الجاهليين — فى فترات لهوهم — بصباغه . وكان من أثره هذه الأبيات التى أثبتّها ، والتى كنتُ حريصًا ، فى انتخابى لها ، أن أختار منها ما يمثّل هذه اللذّات مجتمعةً أو متفرّقة . وأحسب أن هذا القدر من البحث والاستشهاد له كافٍ لإبراز هذا الأثر العام .

* * *

الأثر الخاص :

وأمّا الأثر الثانى للقيان فى حياة الشعراء الجاهليّين فهو هذا الأثر الخاص فى عاطفة الشاعر ، حين تصبح القينة حبيبة معشوقة ، تثير فى الشاعر دَواعىَ القول ، فينظم فيها متغزّلاً متشوّقًا ؛ أو حين تبلغ من جمال الصوت ، أو فتنة الجسد ، منزلة تدفع الشاعر إلى أن يعرض لها واصفًا صوتها وجسدها . ولا شكّ فى أن الأثر الأوّل العام يشمل ، فى بعض طيّاته ، أجزاء من هذا الأثر الخاص ، ولستُ فى حاجة إلى إعادتها هنا ما دامت قائمةً هناك تدلّ على نفسها .

ولا نستطيع ونحن نتحدّث عن الشعراء الذين تغزّلوا بالقيان واستوحوهنّ ووصفوهنّ — أن نغفل ذكر الأعشى شاعر القيان والغناء فى العصر الجاهلى . فقد أكثر من الغزل فى ثلاث من القيان هنّ : هُرَيْرَة وقُتَيْلة وجُبَيْرة ؛ وأكثر كذلك من وصف غيرهنّ والحديث عنهنّ ، ولكنّنا نقتطع الحديث عنه من هذا المجال ، وندّخره للفصل الأخير الذى نعقده عن الأعشى ، ونفصّل القول فى غزله بالقيان ووصفه لهن وصفًا دقيقًا تفنّن فيه .

ويدخل فى هذا المجال كذلك ما فصّلْتُ فيه القول فى الفصل الثالث من الباب الأوّل ، فقد تحدّثْتُ هناك حديثًا طويلاً عن وصف الشعراء للقيان ، وأصواتهن ، وأجسادهن ، وملابسهن ، وحُليّهن ، وآلاتهن ، ومجالس غنائهن ، ولا أحبّ أن أعيد هنا ما فصّلتُ القول فيه سابقًا ، غير أنى أشير إلى أمثلة قليلة للتذكير بها ، ولإبرازها فى هذا الموطن حيث يجب أن تبرز .

فممّن يبدو أنّه كان يعشق قينته : أُحَيْحَة بن الجُلاح ، ففى هذه الأبيات يتشوّق إلى قينته مُلَيْكة ، ويتغزّل بمفاتنها ، ويتشهّى جسدها ، قال :

يَشْتَاقُ قَلْبى إلى مُلَيْكَةَ لَوْ ... أَمْسَتْ قَرِيباً مِمَّنْ يُطَالِبُهَا

مَا أَحسَنَ الجِيدَ من مُلَيكَةَ وَالـ ... ـلَّبَّاتِ إِذْ زَانَهَا تَرَائِبُهَا

يا لَيْتَنى لَيْلَةً ، إذا هَجَعَ الـ ... ـنَّاسُ وَنَامَ الكِلابُ صَاحِبُهَا

فى لَيْلَةٍ لا يُرَى بِهَا أَحَدٌ ... يَسْعَى عَلَيْنَا إلاَّ كَوَاكِبُهَا

وممّن أثارته القيان إلى نظم الشعر فيهنّ ، ووصف محاسنهن وحليهن : أبو مسافع الأشعرى ، قال يذكر قصة غزال الكعبة ، وتحلّى أسماء وعَثْمة ، قينتى مِقْيس بن عبد قيس ، به[1] :

---

(١) شرح ديوان حسان — ط . ليدن ص : ٥١ وما بعدها .

أَمْسَتْ قيَانُ بَنى سَهْمٍ تَقَسَّمُهُ ... لَمْ يَغلُ عندَ نَداماهُنّ فى الثَّمَنِ
ظَلِلنَ يَجرِى فَتيقُ المِسْكِ بَينَهُمُ ... عَلى مَفَارِقِهِمْ فَنًّا عَلى فَنَنِ

وقال كذلك :

دَعَاهُ إلى الشَّنْفِ شَنْفِ الغَزَا ... لِ حُبٌّ بخَمصَانَةٍ عَيْطَلُ
لِعَثْمَةَ حِينَ تَرَاءَتْ لَهُ ... وَأَسْمَاءُ عَاطِلَةً أَجْمَلُ

وممَّا يمتّ إلى هذا الجزء من البحث بصلة : وصف عمرو بن الإطنابة قيانَه ، حيث يقول[1] :

عَلِّلانى وَعَلِّلا صَاحِبَيّا ... وَاسْقِيَانى منَ المُرَوَّقِ رِيَّا
مَا أُبَالى إِذَا اصْطَبَحْتُ ثَلاثاً ... أَرَشِيدًا دَعَوْتَنى أَمْ غَوِيّا[2]
إِنَّ فينَا القيَانَ يَعْزِفْنَ بِالدّ ... ف لفتْيَاننَا وَعَيْشاً رَخِيًّا
يَتَبَارَيْنَ فى النّعيمِ وَيَصْبُبْ ... نَ خلالَ القُرُونِ مِسْكاً ذكيّا
إِنَّمَا هَمُّهُن أَنْ يَتَحَلَّيْ ... نَ سُمُوطاً وَسُنْبُلاً فَارِسيّا
مِنْ سُمُوطِ المَرْجَانِ فُصِّلَ بالدُّ ... رِّ ، فَأَحْسِنْ بحَليْهِنَّ حُلِيّا

---

(١) الأغانى – ساسى ١٠ : ٢٨ – ٢٩ .

(٢) هذا البيت زيادة من كتاب العود والملاهى للمفضل بن سلمة – مخطوط بدار الكتب – ورقة ٤٠ .